تفريغ مادة مرئية بعنوان

تفصيل قضية

العذر بالجهل

٤/ ٨/ ٢٠١٧ – ١٢ ذي القعدة ١٤٣٨

مدة المادة: ٢٢:٥٢

الشيخ

أبو قتادة الفلسطيني

حفظه اللّٰه

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله:

يسأل الإخوة: هل مسألة العذر بالجهل في أصول الدين من المسائل الخلافية؟ لو تفيدونا بشيء من التفصيل بارك الله بكم.

نحن في الحقيقة –أيها الإخوة الأحبة– أمام أناس لا يتقون الله، وأمام أناس يتعالمون.. أمام أناس غلب على ظنهم ووهمهم أنهم يمكن لهم أن يكتشفوا في التوحيد ما لم يكتشفه الأوائل، ولذلك يخوضون في هذا الباب وهذا الأمر خوضًا غير سديد.

لنبدأ بمقدمات معروفة كان العلماء يذكرونها في كل مسألة تحدث ويخرج المبتدع بهذه المسألة كمسألة فاصلة بين الموحد وبين المشرك.

فمثلًا: لما ظهرت مسألة خلق القرآن، زعم المعتزلة: بأنها مسألة من أصول الدين، ويجب أن يمتحن عليها الناس، وجعلوا مناط الحكم في زمانهم بين المسلم والمشرك هو القول بخلق القرآن، وامتحنوا الناس على هذا... والفتنة مشهورة.

فماذا كان رد علمائنا عليهم؟ هذه المسألة.. ذكرها الله في كتابه!! ذكرها رسول الله ﷺ في سنته!! تذاكرها الصحابة !! فإن ذكروها فنحن أولى بالإتباع والمذاكرة فيها، وإن لم يذكروها فنحن أولى بالسكوت.

والآن نحن نسأل: هذه كتب التوحيد التي ألفها العلماء من جهة الرواية والدراية، يعني: كتب التوحيد التي ألفت في السنة.. التي سميت في وقت من الأوقات بـ "السنة" ردًا على أهل البدع، كـ "السنة" لعبد الله ابن الإمام أحمد، وكتاب "التوحيد" لمحمد ابن خزيمة، وكتاب اللالكائي، وكتاب "الشريعة" للآجري.. وغيرها من كتب أهل السنة.. كتب الرواية؛ والكتب التي تلتها بعد ذلك مع ما دخل فيها من دخل، ثم ما كتبه ابن تيمية رحمه الله...

في الحقيقة: لم نرى هذه المسألة كأصل مبحوث فيه في كلام أهل العلم، والذين يجمعون كلام أهل العلم في موضوع العذر بالجهل، يجمعونه من فتات كلامهم هنا وهنا؛ ولكنه ليس هو بالأمر البارز الذي تُعنوَن حوله الكتب، وتنشأ عليه الخلافات بين الناس، أوأنها من أَخية التوحيد والدين الذي يُفصل فيها بين المسلم والمشرك، بل نرى عند ابن تيمية أنه يتكلم كلاما في هذه المسألة إذا جاء إليها، كما في رده على البكري كما في كتاب الاستغاثة الصغرى الموجود، وكما في كلامه على الرافضة وهكذا... نجد هذا الكلام مبثوثاً في كلامه

رحمه الله... نجد أنها مسألة تمر مراً سريعاً فإنه يعلق المسألة على إقامة الحجة في تكفير أقوام ممن انتسبوا للإسلام وأتوا بأصل التوحيد... نراه يمر عليها بمثل هذا المرور الذي هو موجود ويلاحظه كل طالب علم في هذه المسألة؛ لكن لم يوجد كتاب واحد ولا عالم أفرد هذه المسألة بالنظر باعتبارها مسألة مهمة كما يريد بعضهم اليوم، ولما رأى المتأخرون هذه الطريقة من كلام أهل العلم فيها، فكما يفعل أهل البدع: جردوا السلف من أن نرجع إليهم في مباحثها ولذلك قال قائلهم: كلام السلف في هذه المسألة غير بين ولا واضح.. فنضع كلامهم بعيداً عنا ونبدأ بالمسألة من أصولها... هكذا أرادوا... وفي إرادتهم لهذا معروف وهو أنها مسألة فيها "..."[1] هذه المسألة لم تبحث بحثًا قاطعًا كالمسائل الأخرى التي يخوض فيها الناس، وأنتم تعلمون أن هذه المسألة ليست جديدة في دين الناس حتى تنشأ..

البدع الموجودة في عصور الأقدمين، موجودة... سواءً البدع التعبدية، أوالبدع العقائدية العلمية.. هي موجودة بين الناس، كالإلتجاء للقبور، والإستغاثة بها، والقول على الله بالباطل من المعتزلة والجهمية والقدرية.. موجود..

ولكن نجد كلاماً مبثوثاً.. حتى لما يناقش ابن تيمية رحمه الله هذه المسألة مروراً عليها، فإنه يأتي إلى نصوص، كقول الشافعي في حفص الفرد بأنه كفر وارتد؛ ثم يفصل ابن تيمية: بأنه لم يرتد، وإنما حكم أن فعله ردة، ولو كان مرتداً لسعى به إلى الخلفاء من أجل أن يقيموا عليه حد الردة؛ فتراه يمر على قصص.. تراه يمر على أحداث فيها احتمالات، مما يدل على أنها موجودة، وأنها ليست من الأصل الذي بها يفارق المسلم الكافر إذا اختلف فيها.. موجودة؟ موجودة.. بل لو نظرنا إلى ما يتم به إقامة الحجة من المسائل المبحوثة بين أهل السنة والمعتزلة، فالمعتزلة يقيمون الحجج بالقرآن، وأهل السنة يقيمونها بالوحي؛ ومسألة التحسين والتقبيح موجودة في كلام المعتزلة، وموجودة عند أهل السنة؛ ولها علاقة في قضية العذر بالجهل.. فلماذا لم تبحث هذا البحث الذي يريده البعض، ويريد أن يصل أنه الفارق بين المسلم والكافر؟؟

ولم أرى هذا المبحث قد ظهر إلا في مشايخ الدعوة النجدية –و لم تكن في الطور الأول، يعني: لم تكن في كلام ابن عبد الوهاب ظاهرة وبينة.. كان يتكلم عنها هكذا وهكذا، ثم لما بدأ الخلاف بدؤوا يؤلفون فيها–

(١) كلام غير واضح (٤:٣٢).

وبعض أئمة الدعوة النجدية شط فيها شططاً كبيراً، وأنتم تعرفون أن هناك ثمت كتب ترى بأن الحجة الرسالية في هذا الموضوع تقوم بالعقل، وأن الرجل مشرك حتى لو لم تقام عليه الحجة الرسالية بالوحي.

وبما أن الأخ قد طلب التوسع.. دعوني أخبركم شيء:

الدعوة النجدية دعوة طيبة مباركة، وهذا مما لا شك فيه؛ لكنها من جهة العلم لا يوجد فيها الشيء الجديد... من جهة علمية، هل هناك شيء جديد؟

رأينا كل كلامهم قد استند على فهوم من قبلهم، وخاصة شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهم الله، وخاصة في هذه المسائل الرئيسية؛ لذلك في مسائل التوحيد والإيمان ومسائل الأحكام ومسائل الأسماء.. هم في هذا الباب هم عالة على كلام ابن تيمية، يعني: لم نرى عندهم إنتاجًا خاصًا بهم، وعندما يحتجون بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، لذلك الإنتاج العلمي في أئمة الدعوة النجدية في هذا الباب هو محاولة لتفسير -صح أو لم يصح؛ أصابوا أم أخطؤوا؛ هذا موضوع آخر- كلام ابن تيمية. وهذا نراه في كتبهم.

يعني: لو يبحث الباحث بكتابة وقراءة -والكلام غير الكتابة، فالكتابة أكثر لأنها تذكر النص وتأتي به وتستشهد به، والكلام لا يصلح فيه إذا كان على غير هذه الجهة التي نحن فيها- .. فنرى أن هذه المسألة تبحث... أنهم زعموا أن ابن تيمية يقول كذا.. ولكن ليس هذا قوله بل هذا قوله.. هكذا يدخلون من هذا الباب... من خلال الإستناد لما قاله شيخ الإسلام رحمه الله، ويلتقطون كلمات.. مثلا: أنه سمى من فعل ذلك فهو مشرك؛ ثم يأتي أخر ويقول: لكن لا يشرك إلا أن تقام الحجة؛ ويأتي إلى نص آخر له ويقول: وهؤلاء أمرهم إلى الله... وهكذا.

نجد هذه النصوص عند الحديث عن من يأتي بمثل هذا الشرك... نرى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية يكون قد مشى على وفق ما في دينه في هذا المبحث الذي هو فيه، فلذلك هناك من زعم أن ابن تيمية لم يكفر أحداً من الأعيان!! فردوا عليه وقالوا: لا كفر ابن تيمية بعض الأعيان، وذكروا أشخاص كتكفير ابن عربي؛ وبعضهم يستند بأن ابن تيمية كفر عباد القبور، ويجد نصوصاً أخرى أنه يرى الإعذار في هذا الباب.

فإذا كانت المسألة هنا -ولا أريد الآن أن أقرر ما الأمر عندي، وأنتم تعرفون قولي في هذه المسألة، وإن شاء الله أذكره وأعيده في هذه العجالة- لكن هذا على ماذا يدل؟ نقول لهم كما قال الأئمة... كما قال عبد العزيز الكناني في كتابه "الحَيدة": هذه المسألة عرفها الصحابة؟؟ أتكلموا فيها؟؟.

هذه المسألة لو تكلم بها الأوائل كلاماً قاطعاً لا يحتمل التأويل لعلمنا أنها من التوحيد، أو رأينا إجماعاً حولها.. حتى إذا اختلفوا صار في الأمر سعة... إذا كان أهل السنة قد اختلفوا فيها فيكون في الأمر سعة؛ فكيف إذا لم يبحثوا فيها أصلاً؟!! أو بحثوا فيها على الجهة التي ذكرناها؟! علمنا أنها ليست أصلاً يفارق فيها المسلم الكافر إن خالف فيها.

إذا كانت المسألة هكذا، فلماذا يأتي بعض المعاصرين من أجل أن يكفر من خالفه في هذه المسألة؟؟!!

ولو رجعنا إلى كلام الأوائل لوجدنا أن الأكثر على خلاف ما يقولون، ومن أئمة التحقيق في هذه المسألة... يعني: الشيخ عبد الرحمن المعلمي في كتابه عن العبادة والإله يعذر بالنص.. ابن تيمية يعذر.. محمود شكري الألوسي يعذر.. وابن تيمية يرى لهم أعذاراً؛ فيأتي هؤلاء ليقولوا: لا يعذرون !! طيب.. لكم ذلك.. لا مشكلة.. المسألة علمية... لكن أن يكفروا المخالف فيها هذا هو الضلال.

وكل مسألة تميز بها شخص على معنى الإبداع والإبتداع فيها، دون أن يكون له سلف دل هذا على أن مسيرته فيها باطلة؛ جيد أن تبحث هذه المسألة.. لا بأس.. مسألة علمية.. ولكن أن تبحث، فيكون منتصف الطريق قد أدى إلى نهايته -ومنتصف الطريق: أنه بحث فيها وتبنى فيها قولاً، ثم انتهى به إلى أن المخالف له يكفر في هذه المسألة- دل على أن منتصف الطريق الذي سلكه لهذه النتيجة ضلال وغلط.

والغريب أن الذي يرفع شعار هذه المسألة -في تعقبي أنا- وجدت أنه ليس من أهل هذا الفن -أي: هذه المسائل مسائل التوحيد والإيمان ومسائل الأسماء والأحكام- ليس من أهل هذا الشأن... لا أريد الآن أن أذكر أسماء، ولكن قد يكون له مشاركة في الفقه أو في الأصول... الناس يذكرونها عن بعضهم المشاركة الجيدة لهؤلاء.. لكن هذه المسألة أتى بما لم يأت به الأوائل؛ وهذا دل على الضلال، وهو قد أتى على هذه المسائل العلمية: مسائل التوحيد والإيمان ومسائل الأسماء والأحكام في هذه الباب، على وجه من الباطل والسرعة.. وقفز هذه القفزات السريعة... حيث كان مرجئًا مغرقًا في الإرجاء في مسألة الإنزال، وإسلام الكفرة والمشركين... فرأيناه قافزًا إلى تكفير المسلمين وعلماء المسلمين، وكفر كل من خالفه.

ورأينا من المعاصرين من له بحث في المسألة وله شأن فيها، ومع ذلك يستهول القول فيها، ويستعظم من نظر فيها، ويقول لك: المسألة كبيرة، وأنا لا أعتقد أنها كذلك، لو كانت كبيرة لبحثها الأوائل؛ ولكن لأن بعض أئمة الدعوة النجدية مالوا إلى الشدة فيها، فلم يستطع هؤلاء أن يخرجوا من هذا الإطار، وإلا لو نظرنا

لما قيل – أنا لماذا ذكرت أن الدعوة النجدية في إنتاجها العلمي هو تفسير لما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم؟ لأنه بناءًا على هذه المسألة ينبغي أن تعزل حين يتكلمون.. تعزل.. ولا يؤخذ بكلام أئمة الدعوة النجدية لأنهم مفسرون، وبعضهم يشط في التفسير بناءًا على أن ابن تيمية يكفر القائلين، وبعضهم يقول لا يكفر، وبعضهم يحاول الجمع بين النصوص ويحاول التهويل في المسألة على وفق ما رأى من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وهكذا...

لذلك: هؤلاء المشايخ المعاصرون الذين يهولون هذه المسألة ويرونها عظيمة وكذا.. مبعثه هو: أنهم نظروا إلى كلام أئمة الدعوة النجدية، فرأوا الخلاف فيه، فخافوا من الخوض فيها، ولو عزلنا هذه التفسيرات –في هذه الفترة– لأئمة الدعوة النجدية رحمهم الله، ورجعنا إلى ما قبل ذلك، أو من لم يأت بمثل هذه المسألة، لما وجدنا هذا التهويل.. لوجدنا أنها مسألة من مسائل العلم يمكن أن يقول فيها قائل، بل لاتفقنا على صيغة ما.. أما أن نعزل كلام أهل العلم، وأن نأتي إلى من فسر، فيقع الخلاف فينا، لأن التفسير اختلف الناس حوله، فنتبنى التفسير دون أن نرجع إلى الأصل.. هذا موقف ليس علمياً.

والذي نرى في هذه المسألة.. الموجودة على الواقع: أن الناس يضخمونه ويعظمونه، وتبدأ الجماعات بالتفرق والإقتتال والقتل لشيء لم يقتتل عليه الأوائل العلماء؛ وأنا ذكرته مؤكدًا أن المسألة موجودة في أذهان أهل العلم لأنها تتعلق بإقامة حكم الردة.. وهكذا.

والمسألة الأخرى التي أراها: أن سبب الاختلاف في هذه المسألة من أئمة الدعوة النجدية هو: قضية القتال... ارتدت مسألة القتال على مسألة التكفير... هم توسعوا في قضية القتال، يعني: لو كان أئمة الدعوة النجدية على وفق مسيرة واحدة..

فابن عبد الوهاب أرسل رسالة.. موجودة في الدرر السنية.. للوالي العثماني: بأنهم تحت إمرة العثمانيين؛ وابن عبد الوهاب يعرف من هم العثمانيون، فقد تجول في العراق وتجول في الحرمين، ويعرف من هم.. في بداية الأمر كان يرى الولاية لهم،ويرى أنه لم يخرج عنهم، وإنما هو تحت تابعيتهم... بعد ذلك صار هناك البعد السياسي والتوسع، فلذلك أحيلت هذه المسألة في النظر إلى الآخرين، وبدأ بعضهم يتوسع وبعضهم يضيق وهكذا... فالبعد السياسي هو الذي أظهر هذه المسألة بالنسبة للدعوة النجدية... هذا ما أقوله فيها من جهة النظر إليها من الجهة التاريخية.

وأنا أنصح كل طالب علم -بعد هذا السياق- أنه إذا كان يبحث عن الغرائب، فهناك غرائب كثيرة يمكن أن تأتي بها، وهذه من الغرائب التي بها حصل الافتراء والاقتتال... يمكن كل يوم يخرج لنا شيخ ويتبنى مسألة وتجد له أتباعاً، ونحن في عصر -للأسف- الشيخ ليس فقط الذي ترونه في التلفاز... عندنا مشايخ يغالون، ويكون له الأتباع، ويقاتلون الناس عليها، ويزعمون أنهم على التوحيد، ويكفرون الأمة... إلى غير ذلك.

وكل ضلال سيفرز ضلالًا آخر.

قد يقول قائل: أليس تكفير الملحدين ضرورة من ضروريات الدين، كما ألف أنور شاه الكشميري كتاباً بهذا العنوان: أن تكفير الملحدين ضرورة من ضروريات الدين؟ فنقول: نعم.. تكفير الملحدين.. الذين كفروا بالله، وسبوا الله، وخرجوا من الدين؛ لكن نحن نتكلم عن من يعظم الدين، ويعظم الشريعة، ويريد أن يقيم الشريعة، ويريد أن يرضي الله.. فيقع منه بعض الزلل بسبب جهله لا معاندته... لا أتحدث عن المعاند، إنما نتحدث عن الذي يجهل.

إذا كان شاه أنور الكشميري الذي ألف هذا الكتاب في الرد على الذين زعموا أن الرسول ﷺ ليس خاتم الأنبياء والمرسلين؛ فهؤلاء يكفرون الذي ألف هذا الكتاب... هو يقول: أن تكفير الملحدين ضرورة من ضرورات الدين، وهم يقولون: أنه كافر لأنه كذا وكذا وكذا...على قواعدهم يكفرون أمثاله.

ونحن رأينا من كفر الماتريدية جهلاً وضلالاً في هذا الحكم، وشاه أنورالكشميري هو من الماتريدية.. وهكذا..

نحن أمام بدع كثيرة، يعصمك منها القاعدة: "إياك أن تقل شيئاً لم يقل به السلف" وخاصة في هذا الباب العظيم الذي لا يجوز فيه الجهل، يعني: التكفير هو شق التوحيد.. أن تسلم المسلم وأن تكفر الكافر.. هذا مبناه على الولاء والبراء، وهو أصل الدين.. فهل ترى أن السلف قد جهلوه، حتى جاء فلان وعلان فأظهره وأبانه، وكشف عن مخبوئه، ولم يعرفه الأوائل؟؟!!! سبحانك هذا بهتان عظيم.

فلذلك -أيها الإخوة الأحبة- هذا هو تفصيل هذه المسألة، وعلى طلبة العلم أن يتقوا الله عز وجل.

وإذا كان بعض المعاصرين -لهول ما سمعوا من كلام أئمة الدعوة النجدية- تراهم يتخوفون يقولون: المسألة عظيمة ومسألة اختلف فيها الناس و و و .. الخ.

طيب.. إذا كانت هي أصل من أصول التوحيد الذي به يكفر المرء ويسلم المرء ويدخل في الدين بمعرفة نقطة فيها ومسألة فيها؛ فهل يجوز للناس أن يقولوا: اختلف الناس فيها، وهي مسألة عظيمة من الخلاف؟؟! هذا ما نقرره.

وأما: ما هو القول الصواب في المسألة؟

عندي: أنه إذا أتى الرجل بأصل الدين -أصل الدين هو: كلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله... ألا يعبد إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فلا يرى شريعة إلا ما أتى به رسول الله ﷺ، وأنه لا يعبد إلا الله- وجهل بعض معاني العبادة... يقع هذا... أولاً: أريد أن أدلل الآن -ليس هذا الجواب- من أجل بيان أن بعض الناس يجهل بعض الأمور... قد يخاطب بكلمة العبادة فلا يفهم أن في دينه هذا المعنى من العبادة... هو يريد أن يطيع الله، فهو يجهل أن هذا من العبادة لله... يقع هذا.

فإذا أتى المرء بأصل الكلمة لا إله إلا الله... أنا لا أعبد إلا الله، وأني لا أتبع ولا آخذ شريعة إلا ما أتى به الرسول ﷺ؛ فإذا أتى بهذا الأصل فهو مسلم، وما سوى ذلك يمكن أن يدخل فيه الجهل واقعاً وقدراً.. يمكن أن يدخل فيه الجهل.. أما الجهل كم يكون عاماً أو كبيراً؟؟ فهذا أمر نسبي بحسب أحوال الناس، حتى يأتي زمان لا يدرون ما الصلاة وما الزكاة.. فنسأل الله العفو والعافية.

وجزاكم الله خيراً، والحمد لله رب العالمين.

تفريغ العبد الفقير لرحمة ربه: أبي حمزة خطاب